مقرر قضايا عالمية معاصرة لطلاب السنة الرابعة

قسم التاريخ - جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور أحمد الخضر

الدكتور حكمات العبد الرحمن

المحاضرة الأولى: الحرب الباردة وانعكاساتها

ما هو مفهوم الحرب الباردة وما هي أسبابها

مفهوم الحرب الباردة

يُشير مفهوم الحرب الباردة إلى كل صراع أو تنافس بين الدول لا يتطور إلى استعمال وسائل القوة في سبيل انتصار طرف على الآخر، حيث يُسخّر كل طرف كل وسائل الضغط الممكنة وأساليبه لتحقيق مكاسب مادية ومعنوية. ويُشير مدلول الحرب الباردة إلى تركز الصراع بين معسكرين، رأسمالي غربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، واشتراكي شيوعي بزعامة الاتحاد السوفييتي. ويمكن تعريف الحرب الباردة على أنها حالة من الصراع غير المسلح في ظل وضع متوتر بين جانبين يستهدف كل جانب تقوية نفسه وإضعاف الجانب الآخر بكلّ الوسائل ماعدا وسيلة الحرب الساخنة ... وهي صراع تمتنع خلاله الأطراف المتنازعة عن اللجوء إلى السلاح الواحدة ضد الآخرى.

وعلى الرغم من عدم وجود اتفاق كامل بين المؤرخين حول تحديد تاريخ دقيق لبداية الحرب الباردة، إلا أنه يمكن الحديث عن تاريخين لبداية هذه الحرب: الأول في عام 1917، وهو التاريخ الذي قامت فيه الثورة البلشفية الروسية ضد الحكم القيصري. إلا أنهم عادوا وأكّدوا أن الصراع كان نسبياً وغير مُكتمل الأسباب والظروف من جهة ولسياسة العزلة التي انتهجها طرفا الصراع في الحرب الباردة، ولاسيما إذا علمنا أن الاتحاد السوفييتي كان ضعيفاً نسبياً ولاسيما خلال العقدين التاليين، وكان في الوقت نفسه

واحداً من عدة قوى كبرى في عالم متعدد الأقطاب. أما التاريخ الثاني فكان مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وهو التاريخ الفعلي الذي يُشير إلى بداية الحرب الباردة بداية فعلية شرسة وقوية. ويدلل البعض على ذلك بأن كلاً من بريطانيا وفرنسا والصين خرجوا من الحرب العالمية الثانية ضعفاء، وخرجت اليابان وألمانيا مسحوقتين، بينما شكل الاتحاد السوفييتي، على الرغم من الضعف الذي انتابه التهديد الأكبر للولايات المتحدة الأمريكية بفضل عدد قواته الكبير ووجوده الجغرافي المتمترس في عمق أوربا الوسطى. وقد أعاد جوزيف ستالين في العام 1946 و 1947 التأكيد على أن العالم انقسم إلى معسكرين متناحرين.

وعلى الرغم من أنّ الحربَ الباردة تعبير يُطلق على الصراع غير المُسلح بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى سقوط الاتحاد السوفييتي، إلا أن هذه التسمية لم تكن حكراً عليها، بل أُطلق كذلك على النزاع بين الاتحاد السوفييتي والصين على الرغم من اتفاقهما الأيديولوجي، وكذلك على التوتر الذي كان قائماً في فرنسا خلال أحداث شهر أيار من عام 1968، وسميت وقتها بالحرب الباردة الأهلية.

أسباب الحرب الباردة

على الرغم من عدم وجود اتفاق بين المؤرخين حتى اليوم على تحديد الأسباب التي كانت وراء الحرب الباردة، إلا أنه يمكن أن نُشير إلى الملامح العامة لهذه الأسباب. يأتي على رأس هذه الأسباب الخلافات الأيديولوجية بين المعسكرين الغربي والشرقي. فالهدف الأساسي للشيوعيين كان دائماً القضاء على الرأسمالية حيثما و*جدت، بالمقابل يعمل الرأسماليون على القضاء والحد من انتشار الشيوعية أينما كانت، مستعملين في ذلك شتى الوسائل والأساليب ليحقق كل طرف هدفه. فالاعتقاد الجازم لدى كل من طرفي الصراع؛ الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي أن المواجهة أمر لا مفر منه. فالسوفييت يعتقدون بأن النصر سيكون حليف الشيوعية التي ستصبح عالمية. فالصراع

الذي ساد فترة الحرب الباردة هو صراع متعدد الأوجه، فهو صراع عسكري نووي وأيديولوجي ووجودي يشمل مجالات الحياة كافة.

ويتمثل السبب الثاني في انتشار الشيوعية خارج حدود الاتحاد السوفييتي وزيادة نفوذها في الدول الأوربية القديمة (أوربا الشرقية)، لتُصبح هذه الدول خاضعة لنفوذ وسيطرة الاتحاد السوفييتي، وسلاحاً بيده لمقاومة النفوذ الرأسمالي الغربي ولا سيما الأمريكي. أما السبب الثالث، الذي كان في الوقت نفسه أحد نتائج الحرب الباردة، والذي كان بسبب تصادم مصالح الطرفين واختلافهما، فتمثل ببروز مجموعة من الأزمات الدولية وظهور عدد من مظاهر العصيان والتمرد الذي حمل الصفة المدنية في عدد من الدول. لم يقتصر ظهور هذه الأزمات على دول أوربا، بل تعداها إلى دول جنوب شرق آسيا؛ إندونيسيا (الأزمة في ألمانيا الشرقية عام 1948 وأزمة الصواريخ عام 1962).

ومن بين أهم الأسباب التي يمكن الإشارة إليها أيضاً تطور ظاهرة السباق نحو التسلح، ولاسيما الأسلحة الإستراتيجية وأسلحة الدمار الشامل الذرية والنووية، بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي والذي عُرف بتوازن الرعب، حيث كسر هذا الأخير مسألة احتكار الولايات المتحدة الأمريكية لهذا السلاح. يُشار إلى أنّ كلا البلدين العظميين لم يدخلا في سباق التسلح وحدهما. فالولايات المتحدة الأمريكية ورطت دولاً أخرى كثيرة في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية. وتبقى الإشارة إلى أن انتشار الأحزاب الشيوعية في بعض البلدان الأوربية المحسوبة على المعسكر الرأسمالي والخاضعة لنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية، وزيادة نفوذها شكّلَ هاجساً وعاملَ قلقٍ كبيرٍ للدول الغربية. وكانت بلدان العالم الثالث سبباً في الحرب الباردة. فالاتحاد السوفييتي عمل جاهداً على إيجاد وإنشاء أنظمة اشتراكية في عدد من دول آسيا وإفريقيا وأمريكا الوسطى، قابله عملٌ أمريكيٌ متواصلٌ تمثل في دعم وتأييد الأنظمة والحركات المناهضة لها.

من المسؤول عن الحرب الباردة؟

لم تتبنى النظرياتُ أو الدارسون والمهتمون بمسألة الحرب الباردة موقفاً موحداً تجاه المسؤول عن الحرب الباردة. لذلك ظهرت عدة آراء ونظريات كان لكل منها رأيه فيما يتعلق بإلقاء مسؤولية الحرب الباردة على طرف دون الآخر. وفي السطور الآتية، سنحاول أن نُعطي فكرة موجزة ومركزة حول هذه النظريات والآراء دون أن ندخل في التفاصيل.

تبعاً لهذا الاختلاف في الآراء والتوجهات، يمكن تقسيم الدارسين للحرب الباردة إلى ثلاث مدارس: التقليديون، وأبرز من يمثلهم هربرت فير. ويميل هؤلاء إلى تحميل الاتحاد السوفييتي المسؤولية عن الحرب الباردة. وينطلق هؤلاء من أن الاتحاد السوفييتي لم يتأثر بشكل جدي وفعلي بنفوذ خارجي، بل إن الدافع الأساسي في احتلاله أوربا الشرقية كان داخلياً. وفي الوقت الذي يُنكر فيه التقليديون الضرورات الأمنية لموسكو، فهم يرون أن الولايات المتحد الأمريكية كانت مُجبرة على الدفاع عن مصالحها القومية ومصالح حليفاتها الأوربيات ضد رغبة الاتحاد السوفييتي في التوسع ونشر النفوذ.

وأما التعديليون (المراجعون في بعض المراجع)، فهم عكس التقليديين، حيث يلقون المسؤولية الكاملة في الحرب الباردة على الولايات المتحدة الأمريكية. وقد برروا نظريتهم تلك بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية التوسعية، إضافة إلى الطموحات الأمريكية في أوربا الشرقية. ويُشير هؤلاء إلى أن العناصر الفعالة التي أثرت في السياسة الأمريكية وقعت قبل مبدأ ترومان ومشروع مارشال عام 1947، أي قبل أن يمتلك الاتحاد السوفييتي عناصر القوة والتهديد المباشر لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، وهي التي شكلت سياسة موسكو الخارجية وغذت سياسة الارتياب والعدوانية التي كانت أحد سمات الحرب الباردة. ويتحدث هؤلاء عن مسؤولية النهج الأمريكي الدفاعي ضد التهديد السوفييتي: الدبلوماسية الأمريكية الذرية، والحملات المختلفة السياسية والاقتصادية والعسكرية العلنية منها أو السرية التي تسعى إلى توسيع النفوذ والسيادة الأمريكيين. ولعل أبرز من تبنى هذا الرأي: وليم إبلمان وليامز وجار البروفيتز.

أما الواقعيون، فقد اتخذوا مكاناً وسطاً بين المدرستين التقليدية والتعديلية في مسألة تحميل المسؤولية عن الحرب الباردة. فهم لم يلقوا اللوم على طرف دون الآخر، بل أشاروا إلى أن كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، كل من موقعه ومسؤولياته، يتحمل عنها جزءاً من المسؤولية. وتكمن مسؤولية البلدين، حسب رأي الواقعيين، في أنهم أساؤوا في تحكيم الأمور وتقديرها. ويتكلم هؤلاء عن حتمية الصراع بين الطرفين بهدف حماية المصالح والدفاع عنها، إلا أن ورود المعلومات غير الصحيحة وقلة الخبراء وسوء القرار السياسي زادت من عدم ثقة الطرفين بعضهما ببعض وأثارته.

نهاية الحرب الباردة

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية عقد الثمانينات بالتصعيد والمواجهة وتغليب الصراع على التفاهم والتعاون الذي كان سائداً في النصف الأول من هذا العقد. وقد استغلت الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الأوضاع الداخلية الصعبة التي كان يعيشها الاتحاد السوفييتي لتزيد من هجومها العسكري والدبلوماسي والأيديولوجي ضده. إلا أن ظهور غورباتشوف على رأس القيادة السوفييتية أعاد الحيوية للسياسة السوفييتية التي أصابها الشلل والجمود خلال عهد بريجينيف. فعمل الزعيم الجديد على القيام بعدد من الإجراءات التي تُخفف من حدة التوتر، حيث دعا إلى عقد لقاء قمة لدراسة العلاقات بين القطبين العالميين. جرى اللقاء في عام 1985 بينه وبين الرئيس الأمريكي ريغان، وهو أول لقاء بين الدولتين على مستوى القمة منذ سبع سنوات. ويعدّ هذا اللقاء أحد أبرز الأحداث العالمية إن لم يكن أهمها لسببين، الأول: أنه أنهى مرحلة من التوتر السائد خلال السنوات العشر السابقة له وأعاد الحياة والحيوية إلى سياسة الوفاق والهدوء للعلاقات بين الشرق والغرب، والثاني أنه كان يُمثل فاتحة لعدد من اللقاءات التي تتالت (قمة ريكيافيك 1986، قمة واشنطن 1987، قمة موسكو 1988).

وكان الهدف الأساسي للمحادثات الأمريكية السوفييتية في العام 1986 هو كيفية نزع الأسلحة في البلدين. وعلى الرغم من أن المحادثات لم تُكلل بالنجاح المطلوب، إلا

أنها وضعت مع ذلك الأسس التي ستسير عليها الاتصالات والمباحثات المتعلقة بمسألة نزع السلاح بين الدولتين. مع أن الجانبين لم يتمكنا خلال هذه المحادثات من التوصل إلى اتفاق فقد استطاعا فيه إرساء المبادىء والقواعد الأساسية لنهج التعامل المُستقبلي مع قضية التسلح في البلدين. وكان غورباتشوف قد أعلن في العام 1986 عن استعداده لمنع الأسلحة النووية كافة. وبعد ذلك بعام (1987) وقّع غورباتشوف اتفاقاً يتضمن الحد من الأسلحة النووية، وهي المعاهدة التي عُرفت بـــ (INF) والتي تحظر سائر قوات صواريخ العمليات الإستراتيجية السوفييتية الموجهة منذ ثلاثة عقود نحو أوربا وآسيا. وفي العام 1988، اقترح الزعيم السوفييتي تخفيضات على الأسلحة التقليدية في أوربا ضمن خطة تهدف إلى التخلي عن التفوق العددي للاتحاد السوفييتي من خلال التخفيض الكبير للقوة من جانب واحد. وفي العامين 1988 و1989 تم سحب القوات السوفييتية من أفغانستان، في الوقت الذي شجع فيه على الإطاحة بالزعامات الشيوعية التقليدية في أوربا الشرقية. كما أتبع ذلك التخلي عن معاهدة وارسو وعن الاتحاد الاقتصادي لمجلس المعونة الاقتصادية المشتركة (CMEA)، ووافق على التخفيضات الكبيرة في القوات النووية الإستراتيجية.

وكان أول ما قام به جورج بوش الأب بعد وصوله إلى كرسي الرئاسة في البيت الأبيض الأمريكي بنتيجة انتخابات عام 1979 هو ترحيبه الكامل ودعمه الكبير لكل الإجراءات التي يقوم بها غورباتشوف وكذلك للتحولات الأيديولوجية التي بدأ يعيشها الاتحاد السوفييتي ويسير عليها في ظل سياسة البيروسترويكا*، والتي أسهمت كثيراً في نهاية المطاف على تشجيع التقارب بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. وفي القمة الأولى التي عُقدت في مالطا بين الرئيسين غورباتشوف وبوش الأب عام 1989 تم التوقيع على معاهدات تنصّ على تخفيض في الأسلحة التقليدية والإستراتيجية والتي عُرفتا بمعاهدتي ستارت الأولى والثانية.

* إعادة البناء أو إعادة الهيكلة. وهي برنامج للإصلاحات الاقتصادية أطلقة الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف. وقد صاحب البيروسترويكا سياسة غلاسنوست. وقد أدت السياستان معاً إلى انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991.

وقد أتاحت سياسة التقارب هذه مع الاتحاد السوفييتي الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية لكي تقف على حقيقة أوضاع الاتحاد السوفييتي الداخلية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد استطاعت الولايات المتحدة أن تستخدم الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها الاتحاد السوفييتي بمهارة شديدة كوسيلة يمكن من خلالها انتزاع الكثير من التنازلات والتلويح بالمساعدات الاقتصادية الأمريكية بهدف تحقيق العديد من المكاسب ولاسيما في المجال الذي بقي لمدة طويلة مجالاً حيوياً للاتحاد السوفييتي، الذي يعاني هو نفسه أزمة اقتصادية خانقة، بعد أن أصبح الممول الاقتصادي والمالي له بالأمس بأمسّ الحاجة للمساعدات الاقتصادية اليوم، والذي أفضى في نهاية المطاف إلى انهيار المعسكر الاشتراكي وتفتت الاتحاد السوفييتي إلى مجموعة دويلات تلهث وراء المساعدات الاقتصادية الغربية ولاسيما الأمريكية. وقد تكلم غورباتشوف في البيروسترويكا على المجتمع السوفييتي الذي يعيش في أزمة، وأدرك أنّ الحلَّ الوحيدَ لإيجاد تمويلٍ للاستثمارات المطلوبة بهدف توسيع الإنتاجية وثم جعل الاتحاد السوفييتي منافساً قوياً في السوق العالمي في القرن الحادي والعشرين، هو العملُ على تخفيض المستوى المرتفع لنفقات الدفاع.

وعلى الرغم من الاعتقاد الراسخ بأن زوال المسببات للحرب الباردة كفيل بإنهائها، إلا أن بعض هذه المسببات تبقى ذات تأثير جزئي ومحدود ما لم يتم التخلي عن المسببات على مستوى البنى العقيدية الرئيسية، وهو ماحدث فعلياً في عهد ميخائيل غورباتشوف، الذي عمل على إعادة تقويم السياسة السوفييتية وإعادة النظر في الأهداف والنتائج نظرة أكثر واقعية. وبناءً على ذلك، فالنصر لم يأتِ من جهود الغرب ولا من الميزات التي امتلكها كالحشد الريغاني العسكري، بل جاء من المنافس العتيد الاتحاد السوفييتي نفسه. فالجيل الجديد من القادة السوفييت أدرك مدى الفشل والإخفاق في السياسة السوفييتية على المستويين الداخلي والخارجي. فجاءت رصاصة الرحمة على يد غورباتشوف الذي وضع حداً للحرب الباردة. فالبداية عنده كانت تخليه عن فكرة الصراع الحتمي بين الشيوعية والرأسمالية.

لم تقتصر سياسة غورباتشوف البيروسترويكا على الوضع الداخلي للاتحاد السوفييتي، بل كان لها تأثيرات مهمة على العالم الثالث. فأخذ الاتحاد السوفييتي، بناءً على البيروسترويكا والضغوط الأمريكية، بالتخلي شيئاً فشيئاً عن حركات التحرر في العالم الثالث رافعاً شعارات مُختلفة تبريرية كالوفاق وحل النزاعات الإقليمية بالطرق السلمية. فتمّ تطبيق ذلك على حرب الخليج الأولى؛ الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988)، والتوصل إلى وقف لإطلاق النار في تموز 1988، وتخلي هانوي عن كمبوديا في عام 1988، وسحب قواتها العسكرية منها في عام 1990 بعد أن مارس الاتحاد السوفييتي عليها ضغوطاً هائلة.

هذا في آسيا، أما في القارات الأخرى، فالأمر كان مماثلاً إلى حد كبير. فالقيادة السوفييتية تخلت في عام 1990 عن تقديم الدعم لحركات التحرر في إفريقيا أيضاً، ومارست ضغوطاً على أنغولا وكوبا للتفاوض مع جنوب أفريقيا لحل النزاع في إقليم ناميبيا تحت إشراف وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية للشؤون الأفريقية. وانتهت المفاوضات بالاتفاق على إجراء انتخابات حرة في الإقليم ومنحه الاستقلال. كما أصدر الزعيم السوفييتي غورباتشوف في عام 1988 قراراً يقضي بانسحاب القوات العسكرية السوفييتية من أفغانستان، وكان ذلك مؤشراً مهماً على تحول كبير في السياسة السوفييتية. كما تخلت كذلك عن حلفائها في مناطق أخرى كثيرة من العالم، مُفسحة المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية التي عملت على توطيد وتعميق سياساتها في أوربا الشرقية والعالم الثالث، في الوقت الذي بدا فيه أن انهيار الاتحاد السوفييتي بات حتمياً، وأن سقوطه ليس إلا مسألة وقت.